

المعجم المجهول والفصاح المظلومات

هشام النحاس

ما المعجم العربي؟ ومن يهتم به؟!..

شاهد التلفاز واستمع إلى موضوع: لغة الحاسوب في بعض برامج الدكتور آغا القلعة والجمعية السورية العلمية للمعلوماتية، فإنه يتعجب من صرخات العاتبين على وصف العربية باللغة العلمية المرنة المناسبة لعصر المعلوماتية والمطواعة للحواسيب... على الرغم من شعوره بخشية هؤلاء العاتبين وتخوفهم من إثارة أنصار (القاموس المحيط) أو أشباهه من (تاج العروس) وغيره، من مثل هذه الأقاويل:

من

وما أشك أن إخواننا من الكتاب والمتقنين والعلماء، يعرفون أن عدد المعاجم - أو المعجمات كما يجمعها بعض علماء النقد اللغوي - من مؤلفات التراث العربي القديم فقط، قد بلغ ألفاً وخمسمائة معجم، كما ورد في كتاب: ((معجم المعاجم)). الصادر عن مكتبة لبنان سنة ١٩٨٩م من تأليف: أحمد الشرقاوي إقبال.

فإذا أضفنا مؤلفات المعجميين والعلماء واللغويين في عصر النهضة وفي عصرنا فلنذكر قول مؤلف منهم^(١): (المعجم يُبدأ به ولكن لا يُنتهى منه).

وعشاق (الفيروزا بادي) المكتفون به وحده والذين كانوا السبب في إطلاق اصطلاح (القاموس) على كل معجم إطلاقاً مما جعل المجامع اللغوية ذاتها تقبله وتتخذ القرار بقبوله؛ على الرغم من أنها لفظة فارسية الأصل، ومعناها الأصلي (البحر). وقد اتخذ الفيروزابادي اسماً علماً على معجمه ليميزه من معجم الصاحب بن عباد قبله وكان الصاحب بن عباد المتوفى سنة ٣٨٥هـ و ٩٩٥م قد اتخذ لمُعْجَمِهِ الذي اتهم بالضعف ونقص الثقة به؛ اسم (المحيط). فجاء بعده ابن سيّده (ت. سنة ٤٥٨هـ و ١٠٦٦م) يسمي معجمه: (المحكم والمحيط الأعظم). هذان وغيرهما ممن سبقوا مؤلف

^(١) هو: د. جورج مزّي عبد المسيح مؤلف معجم (لغة العرب) الذي مازالت أجزاءه تصدر عن (مكتبة لبنان) في بيروت، وعنهما صدر له بالاشتراك مع هاني جورج تابري: (الخليل: معجم مصطلحات النحو العربي) ١٤١٠هـ و ١٩٩٠م.

(القاموس المحيط) إلى تسمية معجمهم باسم البحر المحيط.

يُذكر أن وفاة مجد الدين الفيروز آبادي سنة ٨١٧هـ و ١٤١٥م. وقد فاقت شهرة (القاموس) شهرة أي معجم قبله ولقي من المؤلفين وعلماء النقد اللغوي اهتماماً كبيراً، ومنهم محمد بن مصطفى داود زادة من علماء القرن الحادي عشر الهجري في مخطوطه: (الدر اللقيط في أغلاط القاموس المحيط) وقد عرفنا بهذا المخطوط د. إبراهيم السامرائي في مجلة المجمع العلمي العراقي وفي المجلد الثاني عشر الصادر في سنة ١٩٦٥م، أما أشهر المطبوعات في تتبع هئات القاموس المحيط فهو (الجاموس على القاموس) لأحمد فارس الشدياق سنة ١٢٩٩هـ و ١٨٨١م في مطبعة الجوانب في استانبول ويقع في زهاء ٧٠٠ صفحة من القطع الكبير^(٢).

وفي مطلع عصرنا كتب أحمد تيمور في مجلة المجمع اللغوي ما بين سنة ١٣٣٤هـ و ١٣٤٣هـ متتبعا العثرات والأوهام التي يراها في كل من (القاموس المحيط) و (لسان العرب). وتجد ترجمة أحمد تيمور في أعلام الزركلي ٩٥/١.

ترجم (القاموس المحيط) في إيطالية إلى اللغة اللاتينية في سنة ١٦٣٢. شرح (القاموس...) وعقب عليه محمد مرتضى الزبيدي في أوسع معجم عربي هو (تاج العروس من جواهر القاموس) وقد طبع بعد قرن واحد من تأليفه أي سنة ١٣٠٧هـ و ١٨٨٩م واستغرقت طباعته عشرين عاما ويطلع هذا (التاج...) الآن في وزارة الثقافة الكويتية طبعة علمية فنية محققة ومدقق فيها وموضحة.

وفي سنة ١٨٦٩ وضع "بطرس البستاني" معجمه المؤسس على (القاموس...) وسماه (محيط المحيط). ثم اختصره للطلاب في (قطر المحيط).

وانتقد البستاني في (محيط المحيط) الأب أنستاس ماري الكرمل (من سنة ١٨٨٣ إلى ١٩٣٨) ثم جمع انتقاداته هذه في (المعجم المساعد).

ولعل كثرة المخطئين والمنقذين والمشتغلين بهذا (القاموس المحيط) قد أسهمت في زيادة شهرته.

وكذلك معجم لويس معلوف (المنجد) الذي كانت طبعته الأولى سنة ١٩٠٨، لقي من المخطئين والمنقدين ما أشهره وجعل طبعاته تتعدد أكثر من أي معجم عصري آخر؛ حتى إنني وجدت من يسمي أي معجم (منجدا)؛ كما سموا قبله أي معجم قاموساً.

وقد لا يُعرف أن المعلوف مسبوق إلى اسم (المنجد)؛ فإن لعل بن الحسن الهنائي المشهور بأبي الحسن كراع النمل ت. سنة ٣٠٩هـ و ٩٢١م. عدة مؤلفات لغوية يحمل أحدها اسم (المنجد).

ولذلك أتمنى على ساداتنا العلماء الأجلة الذين يفرون من (معجم فصاح العامية)، بالسكوت والتجاهل والتباعد عنه والنجاة إلى موضوع تغانيهم في خدماتهم الجلى من أجل اللغة والأمة، أن

^(٢) أصدر معهد الدراسات العربية العالية في جامعة الدول العربية بالقاهرة كتاباً بعنوان: (أحمد فارس الشدياق وآراؤه اللغوية والأدبية) تأليف د. محمد أحمد خلف الله.

يتفضلوا علي وعلى كل من بحث في فصاح العامية بالتشهير وافتضاح العيوب العلمية والسقطات الموضوعية لهذه البحوث وأمثالها؛ ورحم الله امرأ أهدى إلي عيوبي:

لئن ساعنى أن نلتنى بمساعة لقد سرنى أنى خطرت ببالك

مصادري ومراجعي في توثيق (فصاح العامية)

اعتمدت في بحثي كما اعتمد أغلب الباحثين قبلي في فصاح العامية أو تفصيلها على أوثق المصادر والمراجع ومنها:

(معجم مقاييس اللغة) لأحمد بن فارس (ت. سنة ٣٩٥ هـ و ١٠٠٥ م). و (لسان العرب) لمحمد ابن مكرم بن منظور الأنصاري (ت. سنة ٧١١ هـ و ١٣١١ م). ومحمد مرتضى الزبيدي (ت/ ١٢٠٥ هـ و ١٧٩٠ م) وهو شارح القاموس والمستدرک عليه بالتعقيب في (تاج العروس...)، وعلى (أساس البلاغة) للزمخشري ت. سنة ٥٣٨ هـ و ١١٤٤ م، و (المصباح المنير) للفيومي ت. سنة ٧٧٠ هـ و ١٣٦٨ م.

ومن المحدثين كنت أقبل على معجم مجمع القاهرة (المعجم الوسيط) ط ١ سنة ١٩٦٠، ثم ط ٢ سنة ١٩٧٢ م. وأوسع منه معجم (متن اللغة) للشيخ أحمد رضا العاملي وقد طبع في خمسة مجلدات في بيروت ١٩٥٨ - ١٩٦٥ بعد وفاة مؤلفه.

ومن قبله أمثال (محيط المحيط) للبستاني ت. سنة ١٨٨٣ و (الكليات) للكفوي (ت. سنة ١٠٩٤ هـ و ١٦٨٣ م) وقد طبعته في خمسة مجلدات وزارة الثقافة بدمشق من سنة ١٩٨١ إلى ١٩٨٣ م، وهي طبعة ثامنة لهذا المعجم. وموسوعة (المعجم) التي أصدر منها الشيخ عبد الله العلايلي ت. ١٩٩٧ أربعة أقسام في بيروت ١٩٥٤ وتوقف قبل إنهاء حرف الألف. ثم انصرف إلى تأليف معجم (المرجع).

وفي المعاني كنت أرجع إلى: كنز الحفاظ في تهذيب الألفاظ لابن السكيت (ت. سنة ٢٤٣ هـ أو ٢٤٦ هـ و ٨٥٨ م) وقد هذبه "الخطيب التبريزي" (ت. سنة ٥٠٢ هـ و ١١٠٩ م) وضبط طبعة الأب لويس شيخو (١٨٩٦-١٨٩٨ م).

ولم آل جهداً في مراجعة (العين) للخليل حين كانت تتاح لي (ت. سنة ١٧٠ هـ و ٧٨٦ م) و (الجمهرة) لابن دريد (ت. سنة ٣٢١ هـ و ٩٣٣ م)، و (تاج اللغة وصحاح العربية) للجوهري (ت. سنة ٣٩٣ هـ و ١٠٠٣ م)، و (التكملة والذيل والصلة لكتاب تاج اللغة... للجوهري) للصغاني أو الصاغاني (ت. سنة ٦٥٠ هـ و ١٢٥٢ م)، وقد طبعه مجمع القاهرة سنة ١٩٧٠-١٩٧٩ في ستة مجلدات. و (النهاية في غريب الحديث والأثر) لابن الأثير الجزري (ت. سنة ٦٠٦ هـ و ١٢١٠ م)، وغيرها كثير مما أشرت إليه في موضعه من (معجم فصاح العامية).

علم القاموس والمعجم

لست أقصد إلى الإدهاش أو الادعاء أو الدعوة إلى وضع علم يضاف إلى العلوم الوضعية... أو...

وإنما أنا أشعر وأفكر مع من يشعرون بأن للمعجم العربي قضيته التي لا بد من التفكير فيها والإجابة عن السؤال: لماذا؟ مادام علماء العرب من أوائل واضعي المعاجم وكتب اللغة، وتعدّ مؤلفاتهم الأقدم والأوسع والأكثر والأكبر والأعمق والأقوى من بين المؤلفات اللسانية والمكتبات اللغوية للإنسان في شتى عصوره؛ ومع هذا فجمهور المتقنين العرب هم الأكثر إهمالاً من بين من أهملوا استعمال المؤلفات اللغوية؛ وقعدوا يتشكون من لغتهم المعقدة والصعبة التحصيل، ومن بحرّها الذي لا يسلم فيه أمهر الملاحين مهما ضبطوا ودققوا وتدريبوا...

فهل شكا مثل هذه الشكوى أولئك المستشرقون الأجانب الذين اندفعوا إلى الإسهام في حركة تطوير المعجم العربي فكان منهم:

- المستشرق الإنكليزي إدوارد لّين E. W. Laine المتوفى سنة ١٨٧٦. ألف معجماً عربياً ضخماً في ثمانية مجلدات (ترجمته في أعلام الزركلي ج١/ ٢٧٣) واسم معجمه (مدّ القاموس).

- والهولندي دوزي R. P. A. Dosy ت ١٨٨٣ ألف معجماً يستدرك فيه على ما أهملته المعاجم العربية. طبع في ليدن بهولنّدة وترجم إلى العربية وعنوانه: (تكملة المعاجم العربية) أو (مستدرك المعجمات).

- والألماني فيشر A. Fischer ت. ١٩٤٩، اهتم بالتطور التاريخي للألفاظ العربية وأصول بعضها في اللغات السامية أو العربية القديمة، في مخطوط معجم أودعه مجمع القاهرة الذي ما يزال يفكر في المجهودات التي يجب أن تبذل في تحقيقه قبل إعداده للطبع.

بعضنا يتناسون البديهيات وبعض الكليات ونحن في قمة حماستنا للتفاصيل الكثيرة المعقدة من قضايا الفكر؛ فنغفل عن بعض الأسباب الأساسية لتخلف أجيال من أجيالنا؛ فكرياً، وارتباطه بتخلفهم لغوياً...

ولذا نجد من يسخر منا حين نطالب هؤلاء الذين لا يستعملون (المعجم) في تعاملهم اللغوي... كأن صحة الفكر ليست من صحة اللغة. وكأن دقة اللغة لم تبقى عادة اجتماعية راقية، وكأننا لا ندرك أن اللغة هي الأداة الفكرية الوحيدة في ترقية النفس البشرية وصياغة الفكر الإنساني الرائع وأن دقة استخدام اللغة، وإجادتها وتصويبها وتقويم اللسان بها؛ عادة من العادات الضرورية التي يُربى عليها الفرد، من غير المتخصصين؛ وبتأثير مجتمعه إذا كان هذا المجتمع حريصاً على التربية الحضارية الراقية.

لا صحة فكر للأمة إلا في صحة اللغة:

فاللغة الصحيحة شرط التفكير الصحيح. وتحصين الحضارة والثقافة والبنيان العقلي والشعوري يبدأ بتحصين اللغة، ودعم صحتها، وسد الثغرات، وعلاج مواطن الضعف ومسابر العوز والحاجة الماسة إلى التصحيح؛ وإلى هذا قصد القائد بطل التصحيح حينما خاطب جمهور المعلمين في رسالته لتهنئتهم في عيدهم في ٢٤ رجب سنة ١٤٠٨ هـ و ١٢/٣/١٩٨٨ م، وأجترأ ها هنا بفقرة منها:

((أيها الإخوة المعلمون: لغتنا العربية هي عنوان هويتنا، وهي الرابطة بين الناطقين بالضاد، وهي أهم صلات الماضي بالحاضر والمستقبل. بها نعبّر عن ذاتنا، وننشر في الوطن والعالم نتاج الفكر العربي، وننقل إلى أبناء الأمة العربية النتاج الفكري للشعوب الأخرى.

لستم جميعاً مختصين بتدريس اللغة العربية كمادة من مواد المنهاج الدراسي؛ ولكنكم جميعاً مسؤولون عن الحفاظ عليها وعلى قواعدها، فلا عجمة ولا ركابة بل تركيب سليم وفصاحة مما اشتهرت به أمة العرب)).

الفصح المهان والفصاح المجهولة المظلومة:

سنة عقود ونيف مضت علي وأنا أتحمس للتخلص من الازدواجية اللغوية بالفصيحة لغة العلم؛ وأناضل ما وسعني النضال في التعليم والكتابة والتصحيح والتدقيق اللغوي للكتب المدرسية والمطبوعات الأخرى من أجل وضع الفصاح في موضعها العملي الصحيح من مسار الحياة؛ حتى لا تكون الفصيحة لغة الكتابة فقط... وحتى أزيح وأبعد عن الألسنة والأفهام عاميات الجهل ولهجات التفرقة والتباعد والإغراق في إهمال الصحة والضبط والتدقيق.

وضحيّت وبذلت من أجل العربية الموحدة وسعي.. وكان المعجم العربي التليد صاحبي وأليفي وموطن إدماني الذي قادني إلى اكتشاف فصاح العوام؛ وهي الفصاح التي أشعرتني أنها -على كثرة ما كتب عنها قديماً وحديثاً- بقيت منبوذة مهجورة من الفصحاء والكتاب والمربين وكتاب الحواريات القصصية والمسرحية؛ مع أن فصاح العامية يمكن أن تكون أهم ما في فصيح لغتنا لأنها أثبتت وثبتت أنها الأقوى على الحياة والأقدر على البقاء على الألسنة وفي الأفهام؛ فليست تحتاج إلى إحياء، وإنما تحتاج فقط إلى الدفاع عنها من أنصار الجهالة العصبية، ومن المتظاهرين باحتقار كل ما هو شعبي وحيوي... ففصاح العوام هي أساس اللغة الوسطى المنشودة، وهي جديرة باكتشافها وترويجها وإنقاذها من هذه الازدواجية اللغوية التي أصابتنا في ألسنتنا وعقولنا فجعلت بعض أطفالنا يعجزون عن فهم لغة العلم لأن سن ما قبل السادسة هي السن المناسبة لتعلم اللغة واكتسابها بالفطرة والموهبة الغريزية التي سوف تحل محلها القدرة على بذل الجهد للتحصيل الدراسي بعد سن السادسة حينما تضمّر وتنتهي الغريزة اللغوية الفطرية كما ثبت للعلماء من المربين اللغويين^(٣). ولذا دعوت وعملت طويلاً في تفصيح ألسنة المربيات في دور الحضانة ورياض الأطفال. وعملت أيضاً على إنصاف

(٣) راجع مقدمة (معجم فصاح العامية) طبعة (مكتبة لبنان) بيروت ١٩٩٧ في ص ٥٢ و ٥٣ و ٥٤ و ٥٥.

هذه الفصاح المظلومة؛ ضحية التنافس الحماسي أو التظاهر بالانحياز إلى الفصحى في معاركها الوهمية مع أقرام العاميات.

يقول لي متقرباً وممالئاً: (نعم... العامية فصحي غير قياسية). ذلك أني قدمت نفسي له فقلت: مؤلف (معجم فصاح العامية) الذي لم يسمع به أحد؛ فعلي أن أسمع غيري بنفسي. فيهش ويهش ويضحك مرحباً للوهلة الأولى، ولكنه سرعان ما ينتبه إلى أنه قد تسرع ولم يفكر بالعواقب الوخيمة التي ستعود عليه بالضرر البالغ إذا شوهد واقفاً مع أحد أنصار العامية، كما يتوهم... مع أني أعرف في نفسي محاربة كل فكر عامي أو لسان عامي خاطئ جاهل منذ أن فطرت، ومع أني كتبت في مقدمات (معجم فصاح العامية) أني لا أرى في اللهجات العامية إلا انحرافات عن الفصيحة، ومفرزات الخطأ والإهمال والتجهيل والتخلف؛ فهي لهجات تعيش عيلاً على الفصيحة وتستمد منها كل مقومات حياتها، ولا يمكنها أن تصارعها؛ فالعاميات ستموت بجهلها إذا قتلت الفصيحة العلمية المتحضرة التي لن يوجد لها قتل؛ واسألوا المجريين ممن كانوا أنصاراً للعاميات في فترات قصيرة جداً من أنشطتهم، وسرعان ما اكتشفوا أنهم ضيعوا أعمارهم وهم يطحنون الهواء ويدقون الماء وينقصون في الليل غزلهم في النهار كما قال عزّ من قائل: "كالتّي نقصت غزلها من بعد قوة أنكاثاً" - السورة ١٦ النحل الآية: ٩٢.

اختلاف اللهجات قديم جداً:

لابن الأنباري (ت. ٣٢٧ هـ و ٩٤٠ م) في (كتاب - الأضداد)^(٤): ((٥٣- و (وثب) حرف من الأضداد، يقال: وثب الرجل إذا نهض وطفر من موضع إلى موضع، وجميز تقول: وثب الرجل، إذا قعد. وقال الأصمعي وغيره: دخل رجل على ملك من ملوك حمير، وكان الملك جالساً في موضع مشرف، فارتقى إليه، فقال له الملك: ثب، يريد: اجلس، فطفر، فسقط فاندقت عنقه فقال الملك: "من دخل ظفار حمّر" أي تكلم بلسان حمير" وكذلك تناقلت كتب تراثية كثيرة هذه الحادثة كمثل ياقوت الحموي في (معجم البلدان) مادة ط ف ر، وابن جني (ت. ٣٩٢ هـ - ١٠٠٢ م) في الخصائص^(٥) إذ استشهد بها على صحة فكرته التي سبقتها وهي: ((... إنما أمر بحمل الأمور على ما تبدو وإن كان في المغيب غيره، فإن لم تأخذ بها دخل عليك الشك في لغة من تستقصحه ولا تتكر شيئاً من لغته مخافة أن يكون فيها بعض ما يخفي عليك فيعترض الشك على يقينك، وتسقط بكل اللغات ثقتك، ويكفي من هذا ما تعلمه من بُعد لغة حمير من لغة ابن جني...)) وبعد قصة (من دخل ظفار حمّر) يعقب ابن جني عليها: "فإذا كان ذلك كذلك جاز جوازاً قريباً كثيراً أن يدخل من هذه اللغة في لغتنا وإن لم يكن لها فصاحتنا، غير أنها لغة عربية قديمة".

^(٤) من سلسلة كتب (التراث العربي)، التي تصدرها دائرة المطبوعات في دولة الكويت، تأليف محمد بن القاسم الأنباري تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ط. سنة ١٩٦٠ م ص ٩١.

^(٥) الخصائص تأليف أبي الفتح عثمان بن جني. تحقيق محمد علي النجار. ط ٢. دار الكتب بالقاهرة سنة ١٣٧٤ هـ و ١٩٥٥ م. ج ٢ ص ٢٨.

لقد كان الاختلاف في اللهجات واللغيات منذ عصور سحيقة قبل الإسلام... ولكن لهجة قريش كانت المحور الذي استقطب اللهجات واللغيات فوجهها نحو طريق التوحيد الذي أنجزه نزول القرآن الكريم بلغة قريش فلم يبق من اللغيات إلا بقايا تمثلت في القراءات والأحرف السبع... كما تمثلت في اتجاه الأقطار المختلفة بعد عصر الفتوحات الإسلامية إلى تطورات وتأثيرات لغوية تباعد ما بين لهجاتها... يساعد على ذلك فنون لغوية محببة من المتكلمين: كالقلب والإبدال، وأنواع من التلاعب اللفظي والتحريف والتصحيف والإمالة والإدغام والإشباع والترخيم وتخفيف الهمزة اليابسة، أي: المهموزة، بتليينها وحذف همزتها، كما في لهجة قريش أو إحلالها محل القاف في المدن أو غيرها...، أو نحت كلمات في كلمة، أو تطور دلالة المعنى بالنقل من الحقيقة الحسية المادية إلى الصور البيانية والمجازات العقلية والتجريدية بأساليب وطرائق متخالفة من التجريد الذهني. أو حذف الموصوف وإبقاء الصفة حتى تنتقل بالاستعمال إلى أن تغدو أسماء لا مجرد صفات... وتغدو المجازات حقائق لغوية بعد طول الاستعمال، وقد تدخل في المعجم اللغوي أحياناً....

ولكن أخطاء الجهل والانحرافات اللغوية تباعد ما بين اللهجات العامية... ولكن تظل مهما تباعدت اللهجات تستقطبها لغة الخواص وتدقيقات العلماء فتتبع لدى المثقفين طريقاً من التطور نحو الاقتراب من اللغة الفصيحة حتى يُظهروا ثقافتهم.. ولهذا نراهم يدعون إلى ما يسمونه: اللغة المبسطة أو الوسطى ما بين قديم الفصح و بين اللهجات الشعبية المحكية... وفي فصاح العامية ما هو أحق بالاهتمام، والمأنوس من العبارات الفصح أجدر بالتقدير من غرائبها... والتسهيل والإيضاح واجب اللغويين والمربين والإعلاميين والأدباء؛ لتكون الثقافة في خدمة المجتمع، ومن أجل أن نسير على طريق الشفاء من شكوى كتّاب الفنون القصصية والمسرحية من افتقارهم لغة الحوار المناسبة والمفهومة، بسبب هذه الازدواجية اللغوية التي تقسم لغة الشخصية الواحدة بين حديث المشافهة وبين أسلوب الكتابة، فنحن نقول ما لا نكتب.

وفي كثير من دورات انعقاد مؤتمر مجمع اللغة العربية بالقاهرة، واتحاد المجامع اللغوية العلمية العربية، اهتم المجمعيون الأعضاء والمدعوون من العلماء بموضوع فصيح العوام، ونشروا البحوث فقرروا فصاحة العديد من المفردات العامية ونشروها في أعداد مجلة المجمع؛ كما في الدورة السادسة والأربعين ١٩٨٠-١٩٨١ حيث قدم بحث عنوانه: (ما بين الفصحى والعامية من الوحدة في الألفاظ). ولطالما انعقدت (ندوات) و (احتفالات خطابية) من أجل هذا الغرض.

ولقد كنتُ ألفتُ بعض الحواريات الفكاهية الفصيحة الموجهة نحو تصحيح لغة المثقفين وتذكيرهم بفصح العوام وتمنيت أن أجد من الكتاب للشاشة المرئية ومن المخرجين والفنانين من ينشط لمثل هذه الأعمال... وبرنامج "في رحاب العربية"، في الإذاعة، يهتم بفصح العامية كما ألاحظ من تتبع توجهها اللغوي في برنامجها: "في رحاب العربية" وكذلك تجد في مجلة (نهج الإسلام) الصادرة عن وزارة الأوقاف بدمشق من هذه البحوث "د. حسان الطيان" مثلاً وغيره كثير... ولأستاذ نصر الدين البكرة اهتمامات بفصح العامة يبدو في محاضراته وفي بحوثه اللغوية ومنها ما في العدد ٧٣ من هذه المجلة في تشرين الأول ١٩٩٨.

من مشكلات المعجم العربي:

المعجم العربي يتطلب من مستعمله والكاشف فيه... أن يعرف الجذر أو الأصل الثلاثي لمادة الكلمة... ثم أن يعرف الصيغة الصرفية للعبارة.. وقد لا يجد، بعد ذلك كله الصيغة ذاتها، فعليه أن يستخلص من معلوماته الصرفية ما يضيفه إلى معاني الصيغ الأخرى في مادة الجذر ذاته، فهناك إهمال متعمد لكثير من مواد اللغة القديمة التقليدية التي ما تزال تحيا على ألسنتنا وأقلامنا إلى اليوم؛ أعني: المشتقات القياسية التي يحذف كثير منها اختصاراً؛ كمصادر الأفعال فوق الثلاثية، وكاسم التفضيل، وبعض أسماء الزمان والمكان والآلة، والمنسوبات والمصغرات، وجموع السلامة، وصيغ المبني للمجهول وصيغ فعل الأمر وصيغتي التعجب... الخ.. وذلك تصغيراً لحجود معاجمنا التي يُشتكى تضخمها، بعد أن سجلت التطورات اللغوية الممتدة في الزمن عشرين قرناً ونيقاً، والشاملة من الأمكنة والناس ما يكاد يشمل أكثر من نصف شعوب العالم القديم، على امتداده المكاني والزمني وما مرّ فيه من لهجات ولحن لغوي منذ الجاهلية حتى عصر الاحتجاج... وما حدث بعده واستحدث من الألفاظ المولدة والمعربة والدخيلة و... الخ.

ولذلك اعتاد المعجميون أن يهملوا الكثير مما يتطلبه المحتاج إليه اليوم من مفردات لغتنا الحديثة ومصطلحات حياتنا المعاصرة التي يستجدّ فيها الجديد يومياً...

إليك هذا المثال على حذف اسم التفضيل في مادة: (أمن): فالفعل المضارع المسند إلى ضمير المتكلم: أنا (أمن)، صيغته اللفظية تجانس صيغة اسم التفضيل: (أمن) الذي يلفظ بالتخفيف آمن كما في المثال المشهور: (بيتك آمن لك من مسالك المهالك)؛ وأما المضارع المسند إلى ضمائر لا تغير من صيغته فإليك مثاله عن الآية الكريمة (هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه) السورة ١٢ يوسف. الآية ٦٤.

ومن مظاهر إهمال كثير من المشتقات أنك لا تكاد تجد (الأوامر) الجمع الذي مفرده (الأمرة) وهو المصدر الذي وزنه: فاعلة، إلا في القليل من المعجمات. وكأن (الأوامر) نادرة في ألسنتنا.

ولكن هذه الإهمالات كثيراً ما تؤدي إلى جعل مراجعي المعجم من العلماء أو ممن يكونون على مستوى علمي كاف ليستغنوا عما حذف أو أهمل.. ومع ذلك فإن توهم الخطأ في استعمال القياسي الذي أهمله المعجم كان سبباً لتضخم كتب الخلافات اللغوية ومعجمات الغلطات والأخطاء الشائعة، ولتناقضها، وانظر في خلافاتهم حول جمع: معجم على معاجم أم معجمات؟ وجمع زهرة على زهور أم أزهار... وغيرها كثير... كثير... وكما أهملت جموع فصاح مهمة كثيرة الاستعمال شائعة، كما أهمل بعض المعاجم -مثلاً- جمع: (القاضية) بمعنيها المتخالفين على: (قواض). أما (الآونة) فجمع مفرده: (الأوان). فكيف يدركه المبتدئ الذي علينا أن نغرس فيه عادة استعمال المعجم منذ الصغر؟

ولعلني أنظر إلى ألفي مؤلف معجمي ونيف في لغتنا العريقة على أنهم من المتفانين الذين يبذلون حياتهم ويذوبون عبقرياتهم من أجل تسهيل استخدام المعجم والتيسير على طلبة العلم البادئين الشدأة المتشوقين إلى بلوغ المعرفة السهلة السائغة الميسرة... ولكنهم يجدون في إعادة لم هذه

*** التراث العربي ***

الشوارد والمحذوفات ما يؤدي إلى مزيد من التضخم في حجم المعجم فيزداد النفور منه... وطلبة العلم الأجانب يحملون في جيوب ألبستهم موسوعات (الاروس مثلاً) مصغرات في مثل حجوم صغار المصاحف التي نتقنها - غفر الله لنا - ويكاشفونها في مجادلاتهم وهم في وسائل المواصلات أو في الحدائق سواء أكانت مجادلاتهم في جذ أم لهو يُمتع ويفيد.

ونظام الترتيب الجذري المعجمي للمداخل يحوي بقايا الفوضى في الخلاف على الجذور حتى في قديم المعربات - مثلاً - فالمغناطيس، يُدرجه (محيط المحيط) في الجذر: غ ط س كالقاموس المحيط. أما معجم مجمع القاهرة (.. الوسيط) فيدرجه في الجذر: م غ ن، وكذلك جذره في (المعجم العربي الأساسي) الصادر عن (لاروس) لحساب المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم في جامعة الدول العربية ١٩٨٨، وهذا على خلافات في ضبط شكل الميم بين هذه المعجمات.. ويصل الخلاف على الجذور الثلاثية إلى الاختلاف بين الألف الواوية الأصل، وبين اليائية الأصل، أو الألف اليابسة غير اللينة؛ أي: الألف المهموزة. ف شهر (آب) في المعاجم التي تأخذ برأي (لسان العرب) لابن منظور المصري في: أو ب. ولكنه في معجم مجمع مصر (الوسيط) في أ ب. والفعل: (آلى إيلاء) في (القاموس...) وفي (محيط المحيط) واوي، ولكنه يائي في (المعجم الوسيط) أما سهولة الوصول إلى: (الآلاء) القرآنية الدارجة في تسمية الفتيات في أيامنا... فحدث عنها ولا حرج... ولمفردها صيغ... منها: (الألوة)، و (الإلى)؛ بمعنى: النعمة. ومنها: (اللأي)؛ بمعنى: الجهد أو الحاجة إلى الناس وتصغيرها: (لوي) قل أن يذكره معجم.

والفضل في نقل (المتحف) من باب: و ح ف إلى: ت ح ف، يعود إلى (القاموس المحيط) الذي لم يترجم له، ولكنه ترجم لـ (التحفة) في ت ح ف ثم نص على أن أصلها من: و ح ف، وعلى أنه سوف يترجم لها في الواو؛ ثم لم يفعل! وقد تابعه (محيط المحيط)، أما الذي أضاف (المتحف) (فالمعجم الوسيط) وقد أورده في باب التاء، وبقرار معجمي.

وعلينا أن نطلب ضمير المتكلم المفرد (أنا) في باب النون من معجمات الترتيب حسب الأواخر (كالقاموس واللسان والتاج...) وفيه أن الألف بعد النون زائدة؛ للوقوف عليها بالسكوت، ولفظها في غير الوقف لغية أو لغة رديئة.

وعلينا أن نطلب (التراث والإرث) من و ر ث. و (الاسم) من س م و. و (الهيئة) من و ه ب. و (تتري) في القول: جاء القوم تتري؛ ليست فعلاً مضارعاً، ولكن هي اسم منصوب لأنه حال؛ ولأن التاء منقلبة عن واو: وتري، مثل: (مرضى): وزناً. ومعنى: (وتري): تياًعاً متتابعين.

والمعاجم المستحدثة في لبنان والتي هجرت نظام الترتيب الجذري للمداخل؛ ورَتَّبَتْهَا أَلْفَبَائِيًّا دون حذف للأحرف المزيدة من مثل (المعجم الرائد) لجبران مسعود ١٩٦٥ و (المعجم العربي: لاروس) لخليل الجر ١٩٨٧. و (المنجد الأبجدي) الذي أعيد ترتيبه، أول طبعة، مختصراً عن (المنجد) ١٩٦٧ فإنها ظلت تتأثر بإعادة المعتلّ بالألف اللينة إلى أصلها الواوي أو اليائي قبل ترتيبها. وقد سمعنا بمعاجم اتبعت مثل هذا الترتيب في تونس والمغرب... وقد طبع (الرائد) لجبران مسعود سبع طبعات حتى ١٩٩٢.

فصاح مظلومات! على أنها الأشد حيوية:

وقد يحذف مؤلفو المعجم من المحدثين اختصاراً ما يظنونه غير مستعمل في لغتنا الحديثة، ويكون مستعملاً في إحدى العاميات التي قد لا نعرفها لتفرقنا في أقطارنا.. ولأن أغلب هذه العاميات غير مسجلة وغير مدروسة وغير معروفة إلا عند أبنائها وفي بيئتهم مع أنها قد تكون حافلة بـ (فصاح العامية)، وأول ما لفت نظري من فصيح العوام كان فيما كان يُظن أنه الأبعد عن الفصاح، في الجزائر، فنشرت في هذه المجلة بعنوان (قبس من اللغة: الفصاح في العامية الجزائرية) في العدد المزدوج ٢٧-٢٨ السنة السابعة ١٤٠٧هـ و ١٩٨٧م من (التراث العربي) كان هذا حصيلة ثمانية عشر عاماً من التتقيب. وذكرت أنني أتمنى أن أجد من العارفين بفصاح العاميات كلها من يجمعها لإضافتها إلى المعجم العصري الذي عليه أن يحافظ على ما لا يزال حياً من فصاح الأمة. وفي صحيح الحديث الشريف: (رأس الحكمة بعد الإيمان بالله مُدَاراة الناس) والفعل (دارى يداري مداراة) وارد في لهجاتنا العاميات، ولكن المعاجم الحديثة التي تتبع الفيروزا بادى في (القاموس...) أهملته لأنه أهمله. وكدت أتورط وأخطئ عالماً يروي عن عالم (قَوْلته) إذ لم أجد القولة في مصادر الفعل (قال) في (المعجم الوسيط)، ولكن حين كاشفت (محيط المحيط) وما هو أقدم وجدت (القولة والقيـل والقال). والفعل (خَبَطَ) المشدد الباء؛ أي: المضغف العين لا تجده في المعجم إلا عند المستشرق دوزي في (مستدرك المعجمات) حيث يذكر أن العالم الأندلسي ابن جزلة استعمله في مخطوط له في الأدوية. ولكني وجدت عبد الواحد بن علي اللغوي. ت ٣٥١ يذكر المضغف (خَبَطَ) في (كتاب الأضداد من كلام العرب) الذي طبعه مجمع دمشق ١٣٨٢هـ و ١٩٦٣م بتحقيق د. عزة حسن. وعبد الواحد يرويه عن قُطْرُب... وهذان أقدم من بعض المعجمات...

ومن فصاح العامية الشامية القديمة المهجورة حديثاً، قولهم لدى الانصراف من عند قوم: (أودَعْنَاكُمْ) و (أودَعْنَاكَ) على الإيجاز في حذف المفعول الثاني لأنه مفهوم بالفطرة والبدية؛ وقد هجر أكثر الشاميين تحية التوديع هذه منذ أن كانت تستعملها في الحواريات التمثيلية (أم كامل: التي كان يمثلها بشخصيتها الفنان المرحوم أنور الباب). فتركوا استعمالها وفي ظنهم أنها عبارة مغرقة في العامية، مع أن الصحيح أنها مغرقة في الفصاحة، وهي مثال من أمثلة كثيرة على مالم أكتب عنه من قبل.

أما الثلاثي (وَدَعَ) فقد كتبت عن رأوه نعلماً مُمَاتاً في صيغة الماضي مع أنهم ساقوا الشواهد عليه ومنها قراءة من القراءات وحديث نبوي شريف! ومن هؤلاء سيبويه في (الكتاب) قبل (القاموس المحيط) وغيرهما... وأما من رفضوا الادعاء بالموت على الماضي الثلاثي ودع فمنهم ابن جني في (الخصائص) وابن منظور في (لسان العرب) والفيومي في (المصباح المنير) والمطرزي في (المغرب في ترتيب المعرب) ومنهم أيضاً عوامنا الذين حافظوا على حياته بلفظه ومعناه.

التصويب والتخطئة... وتخطئة المخطئين:

ومنذ بدايات عصور التدوين في القرنين الثاني والثالث الهجريين؛ أي: الثامن والتاسع الميلاديين، ومع كثرة تدوين كتب اللغة؛ بدأت تُؤلف الكتب والبحوث العديدة في تتبع أخطاء العوام، وبدأت أيضاً مؤلفات التنبيه على ما أنكره قوم على العامة وله وجه في اللغة.. فتكوّن الاتجاه نحو فصيح العوام.. وفي عصرنا تكاثرت هذه المحاورات والبحوث والنقود اللغوية... بسبب اختلاف المراجع المعجمية الكثيرة بين أيدي هؤلاء الباحثين والنقاد، وقد بيّنت هذا في دراسة جعلتها في مقدمات^(١) (معجم فصاح العامية).

من كتب / ما مضى عليه اثنا عشر قرناً

- (الفاخر) لابن سلمة:

المفضل بن سلمة بن عاصم المتوفى سنة ٢٩١ يفتتح مقدمة كتابه (الفاخر)^(٢) فيقول ((هذا كتاب معاني ما يجري على ألسنة العامة في أمثالهم ومحاوراتهم من كلام العرب وهم لا يدرون معنى ما يتكلمون به من ذلك فَيَبَيِّنُهُ من وجوهه على اختلاف العلماء في تفسيره ليكون من نظر في هذا عالماً بما يجري في لفظه ويدور في كلامه)).

- (بجر العوام فيما أصاب فيه العوام):

لابن الحنبلي، رضي الدين، محمد بن إبراهيم بن يوسف المتوفى ٩٧١هـ. دراسة وتحقيق د. شعبان صلاح. طبعة دار الثقافة العربية في القاهرة ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م. وقد تجدد في هذه الطبعة التحقيق الذي كان قام بما أُتيح له منه أستاذنا المجمع عز الدين علم الدين التتوخي قبله بأثنين وخمسين عاماً ثم نشره في عدد من مجلة المجمع العلمي العربي (مجمع اللغة العربية بدمشق) ١٩٣٧ المجلد الخامس عشر.

وفي مقدمته: ((مُستملاً على ما يعتقد الجاهل أو الناس أنه من أغلاط عوام الناس، وليس في شيء من الغلط..)) ويذكر المؤلف ٢٢٣ قولاً من أقوال العامة؛ يثبت صحتها ومن ذلك قول العامة -مثلاً-: فلان وفلان حضروا، وهو قول جار على ماورد في التنزيل، وهو قوله تعالى: هذان خصمان اختصموا.

^(١) انظر في ص ٢٦ و ٢٧ و ٢٨ و ٢٩: (الخلافاً المجمعية أنجبت الأخطاء الشائعة) و (من يخطئ من) و (في نقد الأخطاء الشائعة).

^(٢) المقصود من بين عدد من كتب التراث التي تحمل اسم (الفاخر) كتاب أبي طالب المفضل بن سلمة بن عاصم المطبوع في القاهرة ١٩٦٠م في سلسلة (تراثنا). حققه عبد العليم الطحاوي رئيس تحرير مجلة مجمع اللغة العربية في مصر، مراجعة محمد علي النجار: دار إحياء الكتب العربية: عيسى البابي الحلبي. وقد بينت في ص ٣١ من مقدمة (معجم فصاح العامية) الصادر عن مكتبة لبنان بـ ناشرون بيروت ١٩٩٧م أن اسم (كتاب الفاخر) قد وسمت به عدة كتب أخرى من تراثنا.

- وأفدت من البحوث والمتابعات التي ينشرها في (مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق) رئيس المجمع د. شاكِر الفحام. ومن الباحثين الآخرين في المجمع اللغوية ومطبوعاتها...
- وكذلك أفدت من المواد والبحوث اللغوية في العديد من الكتب مثل كتاب: د. مسعود بوبو (أثر الدخيل على العربية الفصحى في عصر الاحتجاج). ط. وزارة الثقافة بدمشق ١٩٨٢، وكذلك من بحوثه المنشورة في الدوريات.
- وللاستاذ الباحث محمود أمين العالم اهتمامات في البحث اللغوي ظهرت في العدد الخاص الذي صدر من السلسلة العلمية التي يشرف الأستاذ العالم على إصدارها: (قضايا فكرية) وموضوعه: (لغتنا العربية في معركة الحضارة): الكتاب السابع عشر والثاني عشر منها: مايو- أيار ١٩٩٧ بالقاهرة. ولقد كتبتُ إليه فأجابني وأخبرني أن لأخيه المرحوم محمد شوقي أمين أحد العلماء الأربعة المشاركين في وضع (المعجم الوسيط) معجم مجمع القاهرة؛ مسودات لبحوث في فصاح العامية.
- وما أكثر البحوث التي تفوتنا مما لم نسمع به من قبل؛ أو سمعنا به ولم يصل إلينا من مثل: (نحو تفصيح العامية في الوطن العربي) لعبد العزيز بن عبد الله. وغيره مما لا يحضر في ذاكرتي الآن...

الخطبة:

انتقيت المجهول من فصاح العامية لكي أتمكن من الإنجاز وأختصر العمل، ففي لغة الحياة الكثير من العبارات المعروفة بين الناس بفصاحة أصلها لو تحركت سواكنها، كمثل المفردات والعبارات عن الدراسة والعلم والتفكير والتذكر والتنقل والقيام والنوم والطعام والشراب واللبس وشتى مرافق العيش والتعاطف... إلى ما لانهاية له... فالأصل أن العاميات انحرفت عن أمها الفصحية وتشردت... والناس يعرفون ما أصله فصيح من هذه وغيرها... وقد كان غرضي أن أبرهن على الفصاحة المجهولة في طائفة من الألفاظ العامية التي يتجنبها الكتاب والأدباء والمربون والفصحاء... وقد جمعت جذاذات من هذه الفصاح في زهاء ستة وعشرين عاماً، وكتبت عنها في ثلاثة أعوام تالية وطبع في: مكتبة لبنان ناشرون ١٩٩٧م، مع أنني لم أستطع أن أنجز كتابة أكثر من نصف كمية المواد التي جمعتها... متكللاً على أن للباحثين أن يستكملوا مثل هذا العمل ويغنوه وجوده، أو أن يدلوني على أخطائي وعيوبي، ولكني لم أجد من قرأ ما كتبت إلا ممن اهتموا بإخراجه إلى نور الطباعة وقد شهدوا أن الأسلوب جذاب ومشوق، ذلك لأنني تعمدت أن أروي قصصاً عن تطور هذه الألفاظ بأسلوب يمزج الشاعرية بالفكر العلمي الموضوعي؛ فقرأونا يحبون القصة والشعر والمسلسلات المشاهدة على الشاشة، وقد أكثرت من فحص لغة هذه المسلسلات وأشرت إلى فنانيها... وبحثت في الفصاح في ألفاظ محاوراتهم لأنها المادة الأساسية في اللغة الرائجة في عصرنا؛ لغة الإعلام المرئي، فهي لغة مؤثرة أشد التأثير في لغتنا اليومية المعاصرة.. ولا يستطيع آلاف الأساتذة في المدارس والمعاهد وفي الكتب والمطبوعات أن ينشروا تعبيراً صحيحاً

كما ينشره إعلامي فنان على الشاشة المرئية... وانظر إلى ما كتبته في هذا الشأن في مجلة (المعلم العربي) الصادرة عن وزارة التربية بدمشق: العدد الثاني لسنة ١٩٨٦ أي السنة التاسعة والثلاثين لصدور هذه المجلة، وما بين الصفحات ٧١ و ٧٥ بالعناوين الفرعية: وللإعلام التأثير الأكبر - ترسيخ التربية اللغوية إعلامياً - والجفاء بين المثقفين والمعجم، والعنوان الأصلي: التربية اللغوية والمعجم المدرسي.

نحو تسهيل التوجه إلى معجم التطور التاريخي العلمي المتكامل ليتابع الترقّي

إننا لننتفاع... ويسرنا تكاثر المعاجم والقواميس اللغوية والاختصاصية ومعاجم المصطلحات في علوم وفنون شتى... في عصر الحاسوب الذي غدا قادراً على النقامها وغدا العلماء قادرين على تلقيه إياها... ومن ثمّ تنظيم عملية تنقيحها وتحقيقها والنظر في الخلافات بينها لحسمها، والتوفيق بين أنظمتها... ثم إعادة تأليف النتائج في معجم كبير يتتبع تاريخ التطور اللغوي وقصة حياة كل عبارة...

ولقد بدأ العمل في هذا الاتجاه في عدد من المؤسسات العلمية والمعلوماتية كالموسوعة العربية في دمشق، وكمراكز البحوث والدراسات العلمية والمجامع اللغوية واتحادها والوزارات المختصة في دمشق وفي عواصم ومراكز عربية... وغير عربية... والأمل معقود على بعض من ألوان التعاون بين هذه المراكز والمؤسسات والوزارات والمجامع والمعاهد والهيئات العلمية والمعلوماتية.. والجامعات ومكتب تنسيق التعريب حيث بحوث ونشرات (اللسان العربي) في الرباط ونشرات عن مشروعات معاجم المصطلحات العلمية والفنية والحضارية... ليكون لتعاون هذه الجهات المتباعدة جغرافياً... أساس تنظيمي موجه نحو الإنجاز المطلوب للمعجم الكبير الذي بدأ به مجمع القاهرة منذ زهاء سبعين عاماً، وأصدر منه ما مكنته الإمكانيات التي كانت تتاح له.

لقد حلّ التطور الإلكتروني أكثر مشكلات التفكير والذاكرة المسجلين في السجلات البشرية طوال العصور... ولكنني أسائل المختصين: أليكون بمقدور الحاسوب أن يفكر ويكتشف، كما اكتشفت، مثلاً أن إبدال القاف إلى همزة - كما في لهجات بعض المدن - مما أجد له أمثلة في قديم الفصح حيث كتبت بعنوان: (أدى أو قدى يؤذي أو يقدي؛ بمعنى يكفي ويوفي) في ص ١١٨. وكذلك بعنوان: (الأرض والمؤارشة والمقارشة والمهارشة والموارشة ص ١٢١) و (أرّم وقَرّم ص ١٢٣) على الرغم من أن حرف القاف ليس من أحرف الإبدال التي حصرها العلماء ولم يتحدث عنه أي لغوي سوى أن بعضهم تحدث من خلال نادرة غريبة عن إبدال القاف غيناً والغين قافاً في لهجة قديمة^(٨).

□□□

^(٨) ذهب عالم إلى قبيلة وسأل شيخها: (أصبح أنكم تبدلون بالقاف غيناً وبالفين قافاً) فأجاب مستكراً: (استغفر الله! من غال هذا؟) وقد سمعت مثقفاً من بعض مناطق السودان يتحدث في الإذاعة فيقول: (غال فلان...) ويقصد أن يقول: (قال فلان...) راجع ص ٣٩ وحاشيتها وما بعدها حتى ص ٦٠ من الطبعة الأولى من (معجم فصح العامية) ١٩٩٧ (مكتبة لبنان).